

التي تشمل كل الوجود . وأن جود النفس وبقاء نهاية الإرادة على ماها عليه ، بحدان الحياة بسوم الألم وما يفرح منه من حزن وخوف وقلق .

ولذلك يجب على الإنسان أن يفتش من أسباب نقصه سواء أكان في عقله أم في إرادته ، ويسأل على أن يقوم ، ولا يياس من طول مدة التقويم ، ويشارك على معالجة عقله وإرادته حتى يصل إلى مكانة من الرق الروحي يضمن فيها شعوره بأى نوع من الآلام سواء أكانت من تلك الآلام التي تنتاب النفس حين يصدر عنها إثم من الآثام ، أو من تلك الآلام التي تطرأ عليها عند الفشل في أداء عمل من الأعمال .

أما عن الآلام التي سببها انقراض الخطايا ، فترجع إلى جهل الإنسان بمجهر حقيقته وغفلة عن أن إرادته مرتبطة بقانون خلق ليس إلا صورة من صور سرور الله التي تتجلى في الكون ؛ وأنه يجب على النفس أن تعلم أن الله مستقر فيها في قالب القانون الملقى ، كما يجب على الإرادة أن تأتمر بأوامر هذا القانون ، فإنه هو الذي يملك أمرها ويساعد على تحطيم قيود الرغبات والأغواء ، ويضع لها الشعب لتتأهب تدريجياً إلى لا نهاية الله ، وتوصلها إلى تلك الحالة الروحية التي تبلغ بها ملكوت السماء ، فيستحيل عليها ارتكاب القنوب التي تخلقها وتبعث فيها الأحران ، وإنما تحته، بنعيم الحياة والمثنية للطلقة الأبدية التي لا تتباين فيها جميع الوجودات .

بينما القتل في العمل يمكن التغلب عليه بتنمية الواهب ، وتربية الملكات ، وتربية المهارات من طريق العلم والعمل ، لأن الزود بثقافة توسع من أفق المرفة ، وتزيد من قوة الإدراك ، تجنب الوقوع في غلطات تجلب مشكلات شائنة . وإن ممارسة العمل ممارسة واقعية تكسب دراية عملية به ، وبراعة فائقة في أدائه إلا أن كثيراً من الناس يزعمون أن هذه البراعة لا تكتسب بدون مشقة ترهن النفس وتذيقها بعض الآلام ، وأن الذين فضحت مداركهم وصهت قلوبهم لا تحمل حياتهم من آلام ومثاب ، فضلاً عن أن مجرد وجود الإنسان في الحياة يكفنه مذاباً دائماً ، إذ يتطلب منه كفاً متواصلاً ليحصل على ما يوفر له حاجاته المادية .

ولكن طافور يسخر من هؤلاء القوم وبصورهم في صورة من يحسب تقل ضغط الهراء على جسم الإنسان ، فيجده تهاكها نيك فيلتم في تقدير ما يرحح تحته جسم الإنسان من أعمال ، وبضئ

فلسفة طافور الأوغوستينية :

الآلام ثروة الإنسان الناقص

للأستاذ عبد العزيز محمد الزكي

إن طافور الذي برأ الحياة من الشر ، وأرجع وجوده فيها إلى عصيان الإنسان لقانونه الأخلاق ، لم ينب عن باله ما يترى الإنسان من نقص في عقله أو في إرادته ، ولم يفل ما يسيبه هذا للنقص للإنسان من مثاب ، وما يجره إليه من فشل يثير في نفسه أروانا متضاربة من الآلام قد نشق حياته وتفتت فيها النفس .

وسع ذلك لم يلق طافور نعمة هذه الآلام على الحياة ، وأخذ يدل على أنها لا تتعارض مع السعادة ، ولا تسرق الإنسان بالضرورة إلى الشقاء . وزعم أن الله خلق قوى الإنسان ناقصة وإرادته محدودة ، وأن النفس في حد ذاته لا يؤدى الإنسان ، وأن حدود الإرادة لا تمد من نشاطها ، وإنما القى يؤذيه هو أن تظل قواه على ما هي عليه من نقص ، وتبقى إرادته حبيسة حدودها على القوام بدون أن يسي لاستكمال قواه الناقصة ، ولا يجد في أن تصير إرادته المحدودة غير محدودة .

ولو خلق الله بادي قى بدي قوى الإنسان كاملة وإرادته غير محدودة ، لتفتت قدرته اللانهائية من ناحية كل معنى لها ، ولتندر على الإنسان من ناحية أخرى أن يرتق في سلم الوجود حتى يصل إلى تلك المرحلة الروحية النموذجية التي يندمج فيها وجوده في وجود الله ، ويصبح هو والله حقيقة واحدة ، لأن القوة لا تتطور إلى أن تنم نموها إلا إذا دنمها للنقص لتكمل ، وأن الإرادة لا تتحرك حتى تصبح غير محدودة إلا إذا كانت تشمل على التحرر من نطاق حدودها الذاتية لتضى في إرادة الله غير المحدودة . فلولا نقص الإنسان ما عرف الكمال ، ولولا حدود إرادته ما سارت غير محدودة .

فنقص الإنسان ونهاية إرادته لا يسيان إليه بقدر ما يفضاه إلى طلب أرق مهاتب الكمال ، وبلوغ السعادة للمصوى بالتلاشى في لا نهاية الله . وما نفس الله الإنسان بهما إلا ليركبه من السودة إلى التبع الذي انبث منه ، ويحفزه على الفناء في روحه الكبيرى

أن من خواص هذا الجسم أن تتبادل مقاومته مع هذا الضغط ، بحيث لا يشعر بأى شيء بنوده حمله ، فإن كل ما يلاقه الإنسان في الحياة من محن وخطوب لا يفوق الطاقة البشرية ، ويشبه إلى حد كبير ضغط الهواء الذي لا تكاد نحس بوجوده ، وأن في قدرة الإنسان أن يقاومه ويتغلب عليه بأقل جهد .

وإذا بحثنا عن سبب شدة وطأة الآلام ، وعنق وقع التابع على الإنسان ، وجدنا أنه يرجع إلى أنه ينظر إلى الحياة نظرة ضيقة تنحصر في الحاضر دون المستقبل ، وتقتصر مطالب ذاتية عاجزة دون المطالب العامة الدائمة ، فإن لم يجرز ما يريد بأسرع ما يمكن ، وفي أقرب فرصة ، وبأقل جهد ، يفتق ويضطرب ويظن بالحياة الظنون . وإن نزل به خطب جزع اضياع غم عاجل لا يستفيد منه إلا شخصه . وإن خلد في تحقيق مآربه أحسن بجنينة صرة تضايقه . وإن ماتته عوارض الحياة وب فيه اليأس والقنوط ، بينما لو نظر إلى الحياة نظرة رحبية تضم الحاضر والمستقبل ، وتحتضن خير كافة البشر الذي لا يتعمم تحقيقه في الوقت الحاضر ، إذ قد يتحقق في المستقبل القريب أو البعيد لما أكثرث بما يقايله من أهوال ، ولا حركة التابع كوامن أشجائه ، ولا قدم فيرهباب على تنفيذ كل عمل يراه ينفع الإنسانية ولا يرهب الطباب في سبيله ، وكان على استعداد دائم لأن يتحمل المشاق طائفاً مختاراً ، ويقاسي الحرمان دون تضرر ، لا يسأم النضال الطويل ، ولا يثبط عنه الفشل المتوال ، لأنه يدرك أن هذه الآلام ما هي إلا فرايين زهيدة فرضت على من يريد أن يحظى بالحياة في النيات الإلهية عن طريق تعميم ضرب من الخير الهائم بين الناس . فمن يرص أن يمانى الآلام ليسد البشر ، تخومزيمته على تذليل كل عقبة تترض هذه الناية ، وتهون عليه نفسه فيضحي بها في سبيل خير الإنسانية ، ويسير سيراً حثيثاً نحو تلك الحياة الروحية التي لا يمس فيها المرء إلا بمحقيقة فريدة لا شيل لها ، هي حقيقة اتحاد المخلوق بالمخلوقات التي يتمم في كنفها بسعادة عذبة هادئة ، ويتلذذ بنبطة حلوة تحيط الإنسان بهالة من النشوة والحبور ، تدفم عنه سارة الألم ، وتحميه من نسي الأحران .

فطلب الحياة في الله بصهر الماني المألوفة ، فيصيح السرور الذي تريد أن تنم به مقتياً ؛ لأن طريقه وعرضه ، كما يصيح الألم الذي تسفاه محبواً لأنه يقودنا إلى إسعاد لغيره ، ويسوقنا إلى الاعتماد بالله . فمن رحب بالتضحيات من أجل الخير العام

المستمر ، يسطح حياته قيمة عليا ينمى فيها الفوارق بين شتى الماني التي يحياها عامة الناس ، ويفقد السرور والألم عنده تأثيرهما التناقض المتداول ويتساويان ، ولا يبايز بمضها عن بعضها بشيء ، لأن التمتع بالسرور لا يحدث بدون مقاساة الآلام ، والآلام هي الضريبة التي تمهد لنا طريق السرور . فالسرور والألم مختطان ، لا يسهل التمييز بينهما في مثل هذه الأحوال الإلهية .

ولكن يبين الإنسان في سرور دائم يجب أن يخوض ميدان الحياة الاجتماعية ، ليبنى ويهدم ما لا يروقه ما يباه ، ويضع القوانين وينيرها إذا وجدها لا تلائم خير المجتمع ، ويخلق الأكداس المكسدة من الآراء ، ولا يبالي ما قد يقع فيه من أخطاء فإن استمراره في خلق أفكار جديدة يصحح غلطاته ، ويكشف عن أسرار الطبيعة وقوانينها الحق ، ويخترع مختلف الآلات ، أي يعمل بلا انقطاع ولا يخشى الفشل ، فإنه سبيل النجاح والتقدم ، ولا يتفك يبدل فبا وصل إليه من علم وعمل ، وينير ما دام فيها نقص أو عيب ، ويبحث راضياً مرضياً ، لا يفكر مطلقاً في تجنب الألم أو الهروب من التابع ، بل يظهر براعته في القضاء على ما به من نقص ونحوه إلى كمال ، ويبرز مهارته في مختلف أنواع الألم من خذلان ونصب وشجن وخوف ، ويجعلها عنصراً من عناصر السرور . فلا يبنى لأحد أن يتنزل الحياة رعباً من آلامها ومتاعها ، وإنما يجب عليه أن يتحملها سابراً ، طالما أن الألم قوة دائمة تصيره نظماً في الحياة ، وتخطوبه حاضره ، ويمتابة قوة دائمة تصيره نظماً في الحياة ، وتخطوبه من حاضره المحدود نحو مستقبل باهر غير محدود .

إن تطور الحضارات ، وتقلب الديانات ، ونفذ الإنسان للقديم وابتكار حديث يقوم مقامه ، لتذليل على أن الإنسان لا يتأخذ يجد ويخلق ويسير من سرحلة إلى سرحلة أفضل منها ، حتى يبلغ أقصى درجات الكمال التي تكفل له السادة الرجوة .

فالشكوى من الآلام والتابع شكوى لا مسوخ لها ، ولا يبنى أن تترك لها أي منفذ لتشرب منه إلى نفوسنا ، وتلقى فيها نواة التشاؤم ؛ لأن الآلام ضرورية لتقدم الحياة ، ومحك دقيق يقين رقى الإنسان ويحسب مدى ما وصل إليه من سعادة ويبين ما تبقى عليه من أشراط ليصل إلى ذلك السرور السرمدي التي ينبعث في النفس من توافق حياة الإنسان مع حياة الله .

عبد العزيز محمد الزكي